نَقْدُ ادِّعاءات اتِّساع الإعجاز في المُدوَّنات الحَديثيّة والتُّراثية
(جورج طرابيشي إنموذجاً)

أ. أحمد خالد علام[1]

ملخّص

تمُثِّلُ المعجزاتُ إحدى وسائل إثباتِ صدقِ رسالاتِ الأنبياءِ والتصدِّي للمُشكِّكينَ في نُبوّتهم؛ حيث كانَت خوارقُ العاداتِ دليلاً إلهيًّا غيرَ قابلٍ للتحدِّي. وقد جاءَت المُعجزاتُ مُتوافقةً مع زمن كلِّ نبيٍّ ومَهاراتِ قَومِه، لتُخاطِبَ العقولَ وتُقنعَها بأنَّها إلهيّةُ المَصدرِ، وليسَت بشريّةَ الصُّنعِ. وقد تنوَّعَتِ المُعجزاتُ بين إحياءِ المَوتى، وحادثةِ الإسراء والمعراج، ونزولِ المَلائكةِ يومَ بدرٍ، لتُؤكِّدَ على قدرة الله على تغيير الحقائق والوقائع.

وهذا البحثُ يُعالِجُ قضايا مُتعدِّدةً تَشملُ مناقشةَ أدلّة مُنكري المُعجزاتِ الحسِّيةِ مثل ((جورج طرابيشي))، ويَتتبَّعُ إحصاءاتِ المُعجزاتِ في التُّراث الإسلامي، كما يَتناول تحليلاً لكتاب «الخرائج والجرائح» لـ(الراوندي)، مع استقصاءٍ لأثرِ المُعجزاتِ على سلوك الفرد والمُجتمع تاريخيًّا، تَبعًا لطبيعةِ حضورها في الخيالِ الشَّعبي.

الكلمات المفتاحية:

المُعجزات الحسِّية، (جورج طرابيشي)، الخرائج والجرائح، المُعجزة، السِّحر.

١ - حاصل على ليسانس شريعة وقانون جامعة الأزهر، ماجستير في الشريعة الإسلامية حقوق المنصورة - مصر.

مقدِّمة

اللُّطف الإلهيُّ يَقتضي أنْ لا تَقتصر أسبابُ الهداية على تنظيم حركة الإنسان في عالَم المَحسوسات، بل تَوفير أسباب الارتقاء من حَضيض المادّة إلى مَنزلة أسمى على مدارج السُّلوك والكمال الإنسانيِّ، وأحدُ هذه الأسباب ما نُسمِّيه بالإعجاز والكرامة. بيْدَ إنَّ التيّار الحَداثيَّ يَقفز على الغاية والأهداف من المُعجزات النَّبوية الحسِّية، والغاية وراء مَنح الكرامة للأولياء، فيُنكِرُها ويَصفُ العقلَ المُؤمنَ بالمُعجزات بأنَّه «عقلٌ خُرافيٌّ يَعيش في سبات»، ويَتَّهم الإيمانَ بالمعجزات أنَّه يُؤدِّي إلى تَحطيم العقل والمَنطق؛ فالعقلُ الحداثيُّ اختزاليٌّ يَختزلُ صورةَ النبيِّ الأكرم في الجانب البشريِّ دونَ الجانبِ الرُّوحيّ، فلَربمَّا فاتَه أنَّ النُّبوّةَ في حدِّ ذاتها أمرٌ خارقٌ للعادة، فمِن الطَّبيعيِّ أن يكون دليلُها من جنسها. لكنه لا يُوجَدُ عندَ العقلِ الحداثيِّ الأداتيِّ التَّجريبيِّ برهانٌ مُعتبرٌ يَستندُ إليه في إنكار المُعجزات الحسِّية بشكلٍ مُطلَق، فترَاه يَجمع كلَّ ما صادفَه من رواياتٍ وقصصٍ وحوادثَ فيها الغثُّ والضَّعيفُ والواهي، دونَ تَمحيصها وتَدقيقها وبيان جهود علماء الإسلام ومَنهجهم في نَقدها، ثم يُحاولُ حشدَها مُجتزَأةً عن سياقها، للتَّشغيب والنَّقد غيرِ العلميّ.

وعلى صعيدٍ آخرَ، فلا بدَّ من مَنهجيّةٍ في التَّعامُلِ مع رواياتِ المُعجزات والكرامات، تبدأ بوَضعها أولاً في دائرة الإمكان، ثم في مرحلة لاحقة إقامة الدَّليل عليها، الذي يُطالَب به المُثبِت لا النّافي، ثم توضيح سياقها وضرورتها؛ إذ إنَّ خوارقَ العادات تَحدُثُ استثناءً ضمن مسيرةٍ لطيفة، غايتُها إنعامُ المولى على الإنسان، وتَثبيتُ الفضائلِ والقِيَم والأخلاق، أمّا ما يَرِدُ في بعض المُدوَّنات الصُّوفيّة من استخدام الكرامات، كمادّة للإثارة والتَّشويق، فهو يَبتعد عن الغايات النَّبيلة لسِيَرِ هؤلاء العُظماء، وتُصبح مثارَ نقدٍ لاذعٍ وساخرٍ من التيّار الحَداثيِّ والاستشراقيّ.

ولذلك، جاء هذا البحثُ لتقديم قراءة تَضعُ المُعجزةَ في رُتبتِها الوجوديّة المُنضبطة ضمنَ سياقِها الأكبر في قوسِ النُّزولِ من المَولى إلى المَخلوقينَ، مُحاولينَ تجاوُزَ القِراءة المادِّيّة الحَداثيّة، وفي الوقتِ نفسه نقد الاتِّجاه العاطفيِّ التُّراثيّ غير العِلمي، دون إفراطٍ أو تَفريط.

أولا: كتاب: «المُعجزة أو سبات العقل في الإسلام»

يَنطلق (طرابيشي) من فرضيّةٍ مفادُها أنَّ النبيَّ محمَّدٍ ﷺ، لم يُؤيَّدْ بمُعجزاتٍ حسِّيةٍ كالتي نُسِبَت إلى أنبياءَ سابقينَ، كعصا موسى أو إحياءِ عيسى المَوتى. ويَستند إلى العديد من الآيات القرآنيّة التي تُوضِّحُ رفضَ الله الاستجابةَ لطلب المُشركينَ آياتٍ حسِّيةً، مُؤكِّدًا أنَّ القرآنَ نفسَه يُقدَّمُ كمُعجزةٍ بلاغيّةٍ تكفي لإثبات النُّبوة.

يُسلِّطُ (طرابيشي) الضَّوءَ على تسرُّب فكرة المُعجزاتِ الحسِّيةِ إلى السِّيرة النَّبويّة، مُتسائلاً عن الكيفيّة التي انتقلَت بها من النَّفي القاطع في النَّص القرآنيِّ إلى أن تُصبحَ عنصرًا مَركزيًّا في التُّراثِ الدِّينيِّ الإسلاميِّ.

يَربطُ المُؤلِّفُ هذا التحوُّلَ بعواملَ سياسيّةٍ ودينيّةٍ، مثل: التحوُّلات الفكريّة في العصر العباسي: يُشير إلى أنَّ (المتوكِّلَ) أعادَ الاعتبارَ لـ «أهل الحديث» من بعد ما سُمِّيَ «محنةَ خَلقِ القرآن»[1]، وهذا أسهَمَ في تضخيم فكرة المُعجزات، ويَرى (طرابيشي) أنَّ الحاجةَ لجذبِ أهلِ الكتابِ في البلدان المَفتوحة دَفعت إلى اختلاقِ مُعجزاتٍ حسِّيةٍ تَتناسب مع ثقافتِهم الدِّينية[2].

كما تتبَّعَ (طرابيشي) تطوُّرَ سردِ المُعجزات عبرَ القرون، بَدءًا من (ابن هشام) الذي أوردَ عددًا مَحدودًا منها، مُرورًا بـ(الماوردي) و(البيهقي)، وصولاً إلى (القاضي عياض) الذي أحصى أكثر من ١٢٠ معجزة. ومعَ مرورِ الوَقت زادَت هذه الرِّواياتُ بشكل مبالَغٍ فيه، لتَشمل قصصًا أشبَهَ بالخرافاتِ والأساطير، مثل «مدينة المعاجز» عند الشِّيعة الإماميّة.

---

١ - خلافٌ كلاميٌّ بين المعتزلة و"أهل الحديث"، اكتسبَ طابعًا سياسيًّا لانحياز (المأمون) إلى المعتزلةِ، واضطهاده "أهل الحديث"، وتَعريضِهم للسَّجنِ والعَزل من وظائف الدَّولة والتنكيل.

٢ - راجع: جورج طرابيشي: المعجزة أو سبات العقل في الإسلام.

ويَختم (طرابيشي) كتابَه بالدَّعوة إلى "ثورة كوبرنيكية"[1] داخلَ الفكرِ الإسلاميِّ، مشابهةٍ للثَّورة التي أحدثَها (كوبرنيكوس - Copernicus) في الفكر الغربيِّ. ويُطالبُ بتَنقيةِ التُّراثِ الإسلاميِّ من الشَّوائب والخُرافات، مُؤكِّدًا على أهمِّيةِ الانتقالِ من "عالَمِ الكتابِ إلى كتابِ العالَم"، ومِن العَقليّةِ الدِّينيّةِ إلى العَقلية العِلميّة؛ لإعادةِ المسلمينَ إلى مسارِ التّاريخ الحضاريِّ.

ويَتَّفقُ كتابُ «سبات العقل» مع ضرورة إعادة النَّظر في التُّراث الإسلاميِّ وتَنقيته من الخُرافات التي تراكمَت بفعل الصِّراعات السِّياسيّةِ والتعصُّبِ المَذهبيِّ. لكنَّه يُؤكِّدُ أنَّ هذه المُهمّةَ ليسَت مسؤوليّةَ الأفرادِ فقط، بل تتطلَّبُ جهودًا مُؤسَّسيّةً وعِلميّةً ضخمةً، يَقودُها علماءُ يَمتلكونَ الشَّجاعةَ للنَّقد البنّاء[2].

١ - موقف (جورج طرابيشي) من المُعجزات الحسِّية للنبيِّ ﷺ.

تَطغى الرُّوحُ الماديِّةُ على الخطاب الحَداثيِّ وتُسيطِرُ عليه، حتى أصبحَ التدخُّلُ الإلهيُّ في الطَّبيعةِ أمرًا مُنكرًا لديهم، واعتبروا القَوانينَ الكونيّةَ غيرَ قابلةٍ للاستثناء. وقد بدا ذلك جليًّا في مُنتَجِهم الثَّقافيِّ بمختلف العلوم التي تناولوا الحديث عنها. ومن صُور طُغيان الرُّوحِ المادية في خطابهم إنكارُ المُعجزاتِ الحسِّية للنبيِّ ﷺ، وكراماتِ أئمّةِ آل البيتِ والأولياءِ تباعًا، مع الاكتفاء بإثبات المُعجزةِ الخالدة وهي القرآنُ الكريم فقط[3].

وبصفته أحدَ أبرزِ روّادِ الحداثة، تَناول الدكتورُ (جورج طرابيشي) موضوعَ المُعجزاتِ في كتابه "المُعجزة أو سبات العقلِ المُسلم"، حيث يُظهرُ احترامًا كبيرًا لنبيِّ الإسلام، صلَّى الله عليه وآله وسلم، في كتاباته، مُشيرًا إليه دائمًا بلقبِ «النبيِّ» و«الرَّسول»، مع وضع علامة ﷺ كلَّما ذَكرَ اسمَه.

---

١ - نسبةً إلى (كوبيرنيكوس) أحد علماء الفلك، الذي جاهرَ باعتقاده في كروية الأرض، وكونها تَدور حول الشمس لا العكس، ما عرَّضَه للاضطهاد من الكنيسة في العصور المُظلمة في أوروبا. و"الفكر الكوبيرنيكي" يُقصَد به التمرُّد على "خرافات وأساطير" اللّاهوت، والإيمانُ فقط بالعِلم التجريبيِّ وبالدَّليل الحسِّي.

٢ - راجع: جورج طرابيشي: المعجزة أو سبات العقل في الإسلام.

٣ - راجع: محمد الصدر: رسائل ومقالات، إشراقات فكرية، ج١، ص١٤٥.

وعلى الرغم من كونه مسيحيًّا عربيًّا، فإنَّه لم يتحامَلْ على النبيِّ، بل تناولَ الموضوعَ بتقديرٍ ورُؤيةٍ نقديّة. «ويتحدَّثُ (طرابيشي) في كتابه من مُنطلَق مَعرفته العَميقة بالفلسفة الإسلاميةٍ والفلسفة الغَربية، وله إسهاماتٌ كبيرةٌ في ترجمة الأعمال الفلسفيّة الغربيّة إلى العربية. والطَّرابيشي يمتلكُ قدرةً بارعةً في التَّحليل والتَّفكيك، ساعدتْه على نشر أفكاره بين جمهورٍ واسع. ويُعَدُّ مثالاً للمُؤلِّف الذي يُوازنُ بينَ النَّقد البنّاء والاحترام العَميق للتُّراث»[1].

أنكرَ الدكتور (جورج طرابيشي) المُعجزاتِ الحسِّيةَ المَنسوبةَ للنبيِّ محمد ﷺ، وهو موقفٌ يُثير تساؤلات حولَ أُسسه في ظلِّ مُتبنَّيات (طرابيشي) مثل مفهوم المُساواة بين الأنبياء في المَزايا والكرامات الإلهيّة. وأنَّ حياةَ الأنبياء تتَّسمُ بالتَّوازن بين الأخذ بالأسباب المادِّيّة والتَّوكُّل على الإمدادات الإلهيّة. وبالرُّجوع إلى الاستدلالات والمَباني الأساسيّة لـ(طرابيشي)، لا يُوجَدُ لدَيه دليلٌ قاطعٌ يَنفي وقوعَ المُعجزاتِ الحسِّيةِ للنبيِّ محمد ﷺ، وقد يكون تَفسيرُ (طرابيشي) مَحضَ تَخمينٍ اجتهاديٍّ، ومُحاولةً تفسيريّةً غيرَ مدعومةٍ بنُصوصٍ قاطعة.

وفي هذا السِّياق يجدرُ بالذِّكر ما كتبَه (جعفر السبحاني) في أنَّ: «تنصيصَ النبيِّ السَّابق إذا ثبتَتْ نبوّةُ نبيٍّ بدلائلَ مُفيدة للعلم بنُبوّته، ثمَّ نصَّ هذا النبيُّ على نبوّةِ نبيٍّ لاحق يأتي من بعده، كان ذلك حُجّةً قطعيّةً على نبوّة اللاّحق، لا تَقلُّ في دلالتها عن المُعجزة، ومن هذا الباب تَنصيصُ المَسيح على نبوّة النبيِّ الخاتَم، صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، كما يَحكيه -سبحانه- في قوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّـهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾[2].

إنَّ إنكارَ المُعجزات الحسِّيةِ التي أثبتَها القرآنُ الكريمُ يُثيرُ إشكالاتٍ معرفيّةً ومَنهجيّةً، خاصّةً عندَما يكون الإنكارُ مبنيًّا على اجتهاد في فهم النصِّ القرآنيِّ دونَ أدلّةٍ قطعيّة، كما فعل (طرابيشي) وغيرُه؛ فالقرآنُ يَحتوي على إشارات واضحةٍ لمُعجزات حسِّية، مثل الإسراء والمعراج، وانشقاق

---

١ - محمد بن علي اليولو الجزولي: «من آراء (جورج طرابيشي) في السيرة النبوية من خلال كتابه (المعجزة أو سبات العقل في الإسلام): عرض ونقد»، مجلة مركز ابن القطان للدراسات والأبحاث في الحديث:

https://2u.pw/j2R5RJnO.

٢ - علي الرباني الگلبايگاني: تلخيص محاضرات في الإلهيات، ص.ص. ٣٨٢-٣٨٣.

القَمر، ونزول الملائكة يومَ بدر، ورغم وجود خلافات في تفسير هذه المُعجزات، لكن النصَّ القرآنيَّ يُثبت وقوعَها قطعيًّا، حتى وإن كان ذلك بالشَّكل الأدنى وَفقًا لبعض العلماء، مثل نزول الملائكة دون قتال، بهدف تَثبيت قلوب المُؤمنينَ، وحادثة الإسراء والمِعراج هل كانَت بالرُّوح أم بالجسد، ممّا لا يَمنعُها أنْ تظلَّ في حيِّز المُعجزة.

أمّا انشقاقُ القَمر، فهل حدث بالفعل أم سيَحدث يومَ القيامة، فإنَّه لا يَخرج أيضًا من دائرة الإعجاز لأنَّه إخبارٌ بالغَيب، وهو جزءٌ من العقيدة الإسلامية لا يُمكنُ تجاهلُه، فمن ناحية منطقيّة فإنَّ معجزةً واحدةً حسِّيةً تنقضُ الادِّعاءَ بأنَّ المعجزات الحسِّيةَ غيرُ موجودة بشكلٍ كلِّي، استنادًا إلى قاعدة «المُوجبة الجزئيّة تَنقضُ السّالبةَ الكلِّية»، وهذا ما سنُوضِّحُه في البحث.

فالادِّعاءُ بأنَّ الله تعالى اكتفى بمُعجزة القرآن الكريم عندَ (طرابيشي)، بناءً على عدم إيمان الأُمم السّابقة بالمُعجزات الحسِّية، التي أُجريَت على يد أنبيائهم، يُعدُّ ادِّعاءً واهيًا، فهو يُغفلُ جانبًا مهمًّا أيضًا يتمثَّلُ في الكرامات الإلهية التي ليسَت للتَّحدِّي، بل لدعم المُؤمنينَ وتأكيد الكرامة والمحبّة لرُسله. فهذا الإنكارُ يَفتقر إلى دليل قاطع يَدعمُه، علاوةً على ذلك، فإنَّ حصرَ المُعجزة في الجانب البَيانيِّ للقرآن الكريم يُؤدِّي إلى تصوُّرٍ الإسلام كدينٍ مادِّي بحت يَفتقدُ للبُعد الغَيبيِّ، ويُقلِّلُ من دور التدخُّل الإلهيِّ في شؤون الكون والبَشر. وهو ما يَتناقضُ مع تعاليمه التي تؤكِّدُ على التَّوازن بين الجوانب المادِّية والرُّوحانيّة.

٢ - التَّوازن بين المادِّية والرُّوحانيّة في الإسلام

وهذا ما أشار إليه (السَّيد محمد صادق الصَّدر) فقد تحدَّثَ عن التَّوازن بين المادِّية والرُّوحانية في الإسلام. ووفقًا له، فإنَّ وجودَ العوامل الرُّوحية يُعتبرَ أمرًا بديهيًّا للمسلمينَ، حيث إنَّ المُعجزات هي دليلٌ على وجود هذه العَوامل. ولاحظَ أنَّ القرآنَ الكريمَ يُشيرُ إلى وجود قوانينَ روحانيّة في الكون، مثل المَلائكة التي ساعدَت المُؤمنينَ يوم بدر، وأثَّرت في نتائج المَعركة. يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّـهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّـهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٥]. فجَوهرُ الفَهم

الإسلاميِّ للمُعجزات يرتبطُ بالنِّظام الكونيِّ عندَ (الصَّدر)، حيث يُنظَرُ إلى المعجزات والكرامات على أنَّها جزءٌ من النِّظام الكونيِّ الذي يُثبتُ السَّيطرةَ الإلهيّةَ على كافّةِ جوانبِ الحياة[1].

كما يُوضِّحُ (الصَّدرُ) أنَّ العواملَ الرُّوحيّةَ تتفاوتُ في درجاتِ قوّتها، شأنُها شأنُ العواملِ المادِّية، لكنَّها بصورةٍ عامّة تتَّسمُ بالتفوُّق، وهذا التَّفوُّقُ يتجلَّى في قُدرتها على التّأثيرِ في الكون بشكلٍ شاملٍ، بحيثُ يُصبحُ وجودُ العواملِ الرُّوحيّة شرطًا أساسيًّا لحدوثِ المُعجزات. ويُؤكِّدُ (الصَّدرُ) أنَّ وقوعَ المُعجزةِ هو دليلٌ قاطعٌ على وجود النِّظامِ الرُّوحيِّ في الكون؛ فالمُعجزاتُ، سواء كانَت مذكورةً في النُّصوص القرآنيّة أو مُثبَتةً تاريخيًّا، تمُثِّلُ دليلاً حيًّا على سيطرة العَواملِ الرُّوحيّة على النِّظامِ الكونيِّ. ومن النُّصوص التي تَدعمُ هذا قولُه تعالى: ﴿**فَإِن يَكُن مِّنكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٦٦][2].

ويستدلُّ (الصَّدرُ) على وجود هذه القَوانينِ الرُّوحيّةِ من خلال النُّصوصِ القرآنيّة، مُشيراً إلى آياتٍ تدلُّ على تدخُّل العواملِ الرُّوحيّة في مُجرَياتِ الأحداث. ويَذكر مثالاً واضحًا في غزوة بدرٍ، حيث نصرَ اللهُ المسلمينَ بعدَ أن أمدَّهُم بالملائكةِ كعاملٍ روحيٍّ مُؤثِّرٍ. ويَعتبرُ (الصَّدرُ) أنَّ هذا التدخُّلَ الإلهيَّ أتاحَ للجيش الإسلاميِّ تحقيقَ النَّصرِ رغم ضَعفِهم الماديِّ، وهذا يُثبتُ أنَّ العاملَ الرُّوحيَّ يُمكنُ أن يُعوِّضَ النَّقصَ الماديَّ، ويُحدثَ تغييراً جذريًّا في النَّتائج. ويُؤكِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّـهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّـهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ [آل عمران: ١٢٣][3].

٣ - المُعجِزاتُ المُتواترةُ الدّالّةُ على نبوّةِ محمدٍ ﷺ

(العلامة الطباطبائي) في تفسيره يُشيرُ إلى توجُّهِ مَن يَعتقدونَ أنَّ المُعجزاتِ المَنقولةَ عن

---

١ - راجع: السيد محمد صادق الصدر: رسائل ومقالات، إشراقات فكرية، ص.ص. ١٤٥-١٦١.

٢ - محمد صادق الصدر: رسائل ومقالات، إشراقات فكرية، ص.ص. ١٤٥-١٦١.

٣ - محمد صادق الصدر: رسائل ومقالات، إشراقات فكرية، ص.ص. ١٤٥-١٦١.

الأنبياء ليسَت سوى خرافاتٍ مُختلقةٍ - كما يَرى (طرابيشي)-، وهذا التوجُّهُ الذي يَرى أنَّ المُعجزاتِ استُخدمت لدَعمِ الدِّينِ، وتَعزيزِ مكانة القيادات الدِّينيّة، يَجعل النبوّةَ أقربَ إلى «لعبة سياسية». إلا أنَّ (الطباطبائي) يَرفض هذا الفَهمَ، مُؤكِّدًا أنَّ النُّصوصَ السَّماويّةَ والرِّواياتِ النَّبويّةَ تَتناقضُ مع هذا التأويل، ويَعزو هذا التأويلَ إلى النَّزعة المادِّيةِ التي دفعَت بعضَ النّاسِ إلى إنكارِ أيِّ شيءٍ يَتجاوزُ الطَّبيعةَ، وحصرِ تفسيرِ الظَّواهرِ الدِّينيّةِ في إطارٍ ماديٍّ. وعلى الرّغم من ذلك، يُوضِّحُ (الطباطبائيُّ) أنَّ المُعجزاتِ، بما في ذلك الإسراءُ والمعراج، تَحملُ دلالاتٍ غيبيّةً لا يُمكنُ اختزالُها في تفسيراتٍ ماديّةٍ فقط[1].

ويُوضِّحُ كلٌّ من (الإمام الغزاليِّ) و(الحضرميِّ) أنَّ إثباتَ نبوّةِ محمَّدٍ ﷺ يتمُّ من خلال مُعجزاتٍ ظاهرةٍ، مثل انشقاقِ القمرِ، وتسليمِ الحجرِ، وحنينِ الجذعِ، وتفجيرِ الماء من بين أصابعه، وغيرِها من المُعجزاتِ التي رُويت بتواترٍ عن السَّلف. هذه المُعجزاتُ نقلَها عددٌ كبيرٌ من الرُّواة عبرَ أجيالٍ، وهذا النَّقلُ جعلَها معلومةً يَقينيّةً لدى علماءِ السِّيرة. رُويت في مواقفَ حضرَها جمعٌ من الصَّحابة، مثل التجمُّعاتِ الكبيرةِ أو الغَزواتِ، وتمَّ نقلُها بدقّةٍ دونَ خلافٍ أو إنكار. وعلمُ النّاسِ بهذه المُعجزاتِ وصلَ إلى درجة اليَقينِ، سواء كانوا مُؤمنينَ أم غيرَ مُؤمنينَ. كما يُشيرُ إلى أنَّ العلمَ الضَّروريَّ بهذه المُعجزاتِ يَختلفُ حسبَ ما يتوفَّرُ لدى الأفراد من أخبارٍ مُتواترةٍ، مثلَما يَعرفُ النّاسُ عن ملوك الماضي أو أماكن بعيدة[2].

٤ - هل يَنفي القرآنُ الكريمُ وقوعَ المُعجزاتِ الحسِّية للنَّبي ﷺ؟

في الفصل الأوَّل من كتابه، يُناقشُ (جورج طرابيشي) مَفهومَ المُعجزةِ في سياق النُّبوة، مُركِّزًا على خصوصيّةِ النبيِّ محمد ﷺ. يَرى (طرابيشي) أنَّ الأنبياءَ السّابقينَ اقترنَت رسالتُهم بمُعجزاتٍ ماديّةٍ، على حين تميَّزَ النبيُّ محمَّدٌ بعدمِ تقديمِ مُعجزةٍ ماديّةٍ تُثبتُ نبوّتَه، حيثُ اقتصرَ إعجازُه على القرآن الكريم بوَصفِه الدَّليلَ الرَّئيسيَّ لرسالته. يُشير الكاتبُ إلى أنَّ العربَ في زمنِ البعثةِ كانوا يَنتظرونَ

١ - الطَّبَاطِبَائِي: تفسير الميزان، ج١، ص.ص. ٨٩-٩٠.

٢ - راجع: أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣٨٧. & محمد بن عمر بحرق: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، ج١، ص١٣٠.

نبيًّا بمُعجزات خارقة، وفقًا لنُبوءات الكتب السَّماويّة، وهذا جعلَهم يُطالبونَ النبيَّ بمُعجزات ماديّة، مثل تفجير اليَنابيع وإنشاء الجنّات. وردَّ النَّبيُّ على ذلك بأنَّ المعجزات هي من أمر الله، كما قال تعالى: ﴿**قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ...**﴾ [الأعراف: ١٨٨].

يُوضِّحُ (طرابيشي) أنَّ التحدِّيات التي واجهَها النبيُّ من المشركينَ وأهلِ الكتاب اختلفَت؛ حيث ركَّزَ المُشركونَ على مطالبَ ماديّة، على حين تَناولَ أهلُ الكتاب أسئلةً لاهوتيّةً كطبيعة الوَحي والقيامة. يُشيرُ الكاتبُ إلى أنَّ القرآنَ أكَّدَ أنَّ المُعجزات ليسَت ضمانًا للإيمان، مُستشهدًا بالآية: ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ**﴾ [الإسراء: ٥٩]. كما يُبرزُ القرآنُ الآياتِ الكونيّةَ كدليلٍ على قُدرة الله ووَحدانيته، لكنَّها لم تُعتبَرْ كافيةً لتَصديقِ الرِّسالةِ المُحمَّدية.

يَرى (طرابيشي) أنَّ القرآنَ قدَّمَ نفسَه كتحدٍّ لغويٍّ ومعرفيٍّ مستمرٍّ، دون استخدام مصطلح "إعجاز" في النصِّ القرآنيِّ، كما في قوله: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾ [الإسراء ٨٨]. يَخلصُ الكاتبُ إلى أنَّ فرادةَ الرِّسالةِ المُحمَّديةِ تكمُنُ في كون القرآن ذاته هو المُعجزة، حيثُ يُمثِّلُ تحدِّيًا مستمرًّا بلُغته ومعارفه عبرَ العصور، وهذا يَجعلُ التَّجربةَ النَّبويةَ المُحمَّديّةَ استثنائيّةً في التّاريخ الدِّينيِّ[1].

مناقشة وتحليل

طلبَ المشركونَ من النبيِّ ﷺ مُعجزات حسِّيةً مثلَ تفجيرِ اليَنابيع وإنشاء الجنّات، لكنَّ السِّياقَ القرآنيَّ يُوضِّحُ أنَّ هذا الطَّلبَ كان نتيجةَ عنادهم، إذ تمسَّكوا بالكفر رغم الآيات الواضحة. فقد أُعطي لهم القرآنُ، مُعجزةً لغويّةً وعقليّةً، ومع ذلك قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا**﴾ [الإسراء: ٨٩]. كما أنَّ الأُممَ السّابقةَ كفروا رغم المُعجزات، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ [الإسراء: ١٠١]. النبيُّ ﷺ أُيِّدَ بمُعجزات حسِّية مثل نزول الملائكة يومَ بدر، لكنَّ اللهَ منعَ إظهارَ معجزاتٍ أُخرى مَنعًا للعِناد، حيث إنَّ المعجزاتِ لا تضمنُ الإيمانَ بل قد تَزيدُ العِنادَ.

---

١ - راجع: طرابيشي: المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، ص.ص. ٩-٢٧.

١ - تفسيرُ المُعجِزات النَّبوية في ضوءِ القرآن: نهجُ المُحكَماتِ والمُتشابِهات

ذكرَ صاحبُ «أجوبة الشُّبهاتِ الكلامية»، أنَّه لتفسير الآيات القرآنيّة يجبُ النظرُ إلى القرآن كوحدة متكاملة، وتفسيرُ الآيات المُتشابهة في ضوء المُحكَمات، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [آل عمران: ٧]. وتتنوَّعُ آياتُ المُعجزاتِ للنبيِّ ﷺ إلى نَوعَين: الأوّل يُثبتُ صُدورَ المُعجزات بشكلٍ واضحٍ، في حين إنَّ الثاني قد يَبدو نافيًا لها، لكنْ بالنَّظرِ إلى السِّياق، يَظهرُ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يَنفِ المُعجزاتِ، بل أكَّدَ أنَّ حدوثَها مَشروطٌ بإذن الله[١].

وعندَما طلبَ المشركونَ مُعجزاتٍ ماديَّةً، كتَفجير الأنهار، كان هدفُهم الجدلَ والإنكارَ، وليس الإيمان، فبيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ المعجزاتِ تقعُ ضمنَ قدرة الله وحدَه، وليس من اختصاصِ البَشر. وأكَّد القرآنُ إعجازَ القرآن، كما في قولِه تعالى: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾ [الإسراء: ٨٨]، كما بيَّنَ القرآنُ كيفَ اتَّهم فرعونُ موسى، عليه السلام، بالسِّحر رغمَ الآياتِ الواضحة، كما في قوله: ﴿**فَسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا**﴾ [الإسراء: ١٠١]. المُعجزاتُ تتناسَب مع طبيعةِ كلِّ عصر، ففي زمن عيسى ﷺ، كانَت مُعجزاتُه تتعلَّقُ بالطِّبِّ، على حين كانت مُعجزاتُ النبيِّ ﷺ بلاغيَّةً، لتحدِّي البلاغةِ والفَصاحة[٢].

ويَرى الدُّكتور (محمد سعيد المكاوي) أنَّ اللهَ-تعالى- منحَ لنبيِّه خوارقَ العاداتِ من باب الكرامةِ والمحبّة له، لا على سبيل التحدِّي للكافرينَ، بل كان التحدِّي في القرآن الكريم، وهو المُعجزةُ، أما خوارقُ العادات الأُخرى فكانَت كرامات[٣]، هذا، وعلى الرغم من أنَّ لكلام (مكاوي) وجاهةً، إلا أنَّ (طرابيشي) يُنكرُ النّاحيةَ الرُّوحيّةَ في الدِّين الإسلاميِّ، ويَنتزِعُ منه جوهَرَه لصالحِ الماديّات فقط؛ فهو لا يَعترفُ بالأمور الخارقة للعادة بشكلٍ مُطلَق، سواء كانَت بغرض التحدِّي، أم مَحبةً وكرامةً للنبي ﷺ، لتَثبيت المؤمنينَ وطمأنتِهم.

---

١ - راجع: محمد حسن قدردان قرملكي؛ وغلام حسن محرمي: أجوبة الشبهات الكلامية، ص.ص. ٧٢-٧٥.

٢ - راجع: محمد حسن قدردان قرملكي؛ وغلام حسن محرمي: أجوبة الشبهات الكلامية، ص.ص. ٧٢-٧٥.

٣ - راجع: هل معجزات الأنبياء مستحيلة؟، ص١٥٣.

٢ - مناقشة ظاهرة تضخُّم المُعجِزاتِ في التُّراث الإسلاميِّ عندَ (طرابيشي)

يُناقِشُ (جورج طرابيشي) في الفصل الثّاني من كتابه "المُعجزة أو سبات العَقل المُسلِم" تطوُّرَ المُعجزاتِ المَنسوبةِ للنبيِّ محمَّدٍ ﷺ عبرَ الزَّمن، وكيفيّةَ تضاعُفِ هذه المُعجِزاتِ في الكتبِ المؤلَّفةِ حول سيرته. ففي سيرة (ابن هشام)، التي كُتبت في القرن الثالث الهجري، نجدُ أنَّ عددَ المُعجِزاتِ لا يَتجاوز العشرَ، مثل سلامِ الحَجر والشَّجر عليه، وتحريك الجَمادات، وتفجير الماءِ من بين أصابعه. على حين أنَّه في كتاب "أعلام النُّبوّة" لـ(الماوردي)، الذي وُضع في النِّصف الأوَّل من القرن الخامس الهجريِّ، تَضاعفَ العددُ بشكل ملحوظٍ ليَصل إلى أربعينَ مُعجزةً تركَّزَت على تكثير الطَّعام والماءِ وشِفاء المَرضى. وفي "دلائل النُّبوة" لـ(البيهقي)، الذي عاصرَ (الماوردي)، توسَّعَت المُعجزاتُ لتَشمل مزيدًا من التَّفصيل حولَ المُعجِزاتِ السّابقة، مع تَخصيص فصولٍ كاملةٍ لشَرحِ كلِّ مُعجزة.

أمّا في "الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى" لـ(القاضي عياض)، الذي كُتب في النِّصف الأوَّل من القرن السّادسِ الهجريِّ، فنجدُ أنَّ المُعجزاتِ تضاعفَت مُجدَّدًا لتَصلَ إلى مائةٍ وعشرينَ مُعجزةً، مع التَّركيز على تأييد النبيِّ بالأشياء المادِّيّة مثلِ عَرَقِه وبُصاقه، وهو ما لم يَكن مذكورًا في الكُتب السّابقة. وقد اتَّبَع ابنُ كثيرٍ في "البداية والنهاية" منهجًا مُختلفًا، يَعتمدُ على جمع رواياتٍ مُتعدِّدةٍ حولَ المُعجزةِ الواحدة، بهَدفِ تَعزيزِ مصداقيّةِ وُقوعِها، وهذا يُضفي عليها صبغةً من اليَقينِ والإثبات.

كما يُلاحظُ (طرابيشي) أنَّ الأدبياتِ الإماميّةَ شهدَت تزايُدًا مَلحوظًا في عددِ المُعجزاتِ المنسوبةِ للأئمّةِ الاثني عشرَ، حيثُ تمَّ تَصويرُهم كمَن يمَتلكونَ قوًى خارقةً مشابهةً أو تتجاوز ما وردَ في السِّيرة النَّبوية، مثل ردِّ الشَّمسِ على الإمام عليٍّ، أو إحياء المَوتى على يدِ الأئمّة. وفي المُقابل، بقيَت الأدبياتُ السُّنيّةُ أكثرَ مادِّيّةً مُقارَنةً بالأدبيات الشِّيعيّة، حيثُ كانَت المُعجزاتُ المُرتبطةُ بالنبيِّ محمَّد ﷺ تُركِّزُ على إثبات صدقِ الدَّعوة النَّبويّة، في حين بقيَت محدودةً في المُدوَّنات التُّراثيّة، إمّا بسببِ عدمِ العنايةِ بالتَّدوينِ في القرن الهجري الأول، أو لأنَّ مقتضياتِ إظهارِ النبيِّ بالمُعجزة قد انتفَت بعد فتح مكّةَ ودخولِ العربِ في دينِ الله أفواجًا. فيما تُظهرُ هذه الاختلافاتُ بين الأدبياتِ السُّنيّةِ والشِّيعيّةِ كيف أنَّ المُعجزاتِ عادَت ضرورتُها التَّكوينيّةُ لإظهار

شأن الأئمّة فيما أنَّ المدوّنات السُّنيّة لم تكنْ تَعتني بتَوثيقِ هذه المُعجزاتِ والكراماتِ لأسباب سياسيّة.

إنَّ نظريّةَ (طرابيشي) بشأن ظاهرةِ تضخُّم المُعجزاتِ تُعَدُّ أحدَ أشكالِ إنكار المُعجزات الحسِّية؛ إذ يَرى أنَّ كثرةَ المُعجزاتِ الحسِّيّة المَنسوبةِ للنبيِّ ﷺ والأئمّة عندَ الشِّيعة، بمرورِ الزَّمن، تُثبت أنَّها مُجرَّدُ افتراءاتٍ وأساطيرَ نتجَت عن عوامل اجتماعيّة وثقافيّة داخليّة وخارجيّة. ومع ذلك، فإنَّ ثبوتَ مُعجزةٍ حسِّيةٍ واحدةٍ للنبيِّ ﷺ خلال عمره الذي امتدَّ ٦٣ عامًا، وكذلك للأئمّة والأولياء، يَنقضُ هذا الادِّعاء. وكما هو معلومٌ، فإنَّ المُوجبةَ الجزئيّةَ تَنقضُ السّالبةَ الكلِّيةَ. وبذلك، فإنَّ ثبوتَ مُعجزةٍ حسِّيّةٍ واحدةٍ يَنقضُ النَّفيَ الكلِّيَّ الذي أوردَه (جورج طرابيشي) وغيرُه، كما ذكرنا سابقًا. وعلى سبيل المثال قام الدكتور (محمد نبيل غنايم) بتَدقيقِ الرِّواياتِ بمَعاييرَ رجاليّةٍ وتاريخيّةٍ، وتوصَّلَ إلى أنَّها بلغَت نحوَ مائةِ مُعجزةٍ حسِّيةٍ تقريبًا[1].

والمتتبِّعُ لمَنهجيّة (طرابيشي) مقارَنةً بمنهج المُحقِّقينَ من علماء ومُفكِّري الإسلام، أمثالِ (السيِّد محمد صادق الصَّدر)، و(السيِّد هاشم معروف الحسني)، و(الدكتور محمد نبيل غنايم)، سيَجد أنَّهم يُقدِّمونَ قراءةً عقلانيّةً في طول الإيمان بالغَيب: فهم يُقرُّونَ بوُجودِ مُعجزاتٍ حسِّيةٍ للنبيِّ ﷺ وآلِ البيتِ والأولياءِ من عباد الله الصّالحينَ، ولكنَّهُم يتبنَّونَ منهجَ التَّدقيقِ والتَّمحيصِ في قَبولِ الرِّواياتِ، ويَضعونَ لها شروطًا وقواعدَ علميّةً لقَبولِها. لذلك، لا يَتساهلونَ في قَبول رواياتِ المُعجزاتِ، ولا يُنكرونَها بالكلِّيّة. ونكتفي بذكر مَنهجيّة (السيِّد محمد صادق الصَّدر) في التَّعاطي مع المُعجِزاتِ في المنظومة المَعرفيّة الإسلامية.

٣ - الرُّؤية النَّقدية للسيِّد (محمد صادق الصَّدر) حول المُعجزاتِ النَّبوية

يَتناول (السيِّد محمد صادق الصَّدر) في كتابه قضيّةَ المُعجزاتِ النَّبوية بمَنهجٍ نقديٍّ ومُنضبِطٍ، بَعيدًا عن التَّسليم المُطلَق أو التَّعميم. فيُوضِّحُ أنَّ كتبَ التُّراثِ الإسلاميِّ تضمَّنَت عددًا كبيراً من الرِّوايات المَنسوبة للنبيِّ ﷺ، لكنَّ كثيراً منها موضوعٌ، ممّا يَستدعي مَوقفًا مُتفحِّصًا. ويَنسب انتشارَ

١ - راجع: محمد نبيل غنايم: المعجزات الحسية للنبي (ص) والرد على منكريها، ص٤٩١.

الأخبارِ المكذوبةِ إلى عواملَ مثلِ الدَّوافعِ المَذهبيّةِ والسِّياسيّةِ، ومُحاولاتِ تَشويهِ الدِّينِ، إضافةً إلى تساهُلِ القَصّاصينَ. ورغم ذلك، يَرى أنَّ وجودَ هذه الأخبارِ لا يَنفي وجودَ رواياتٍ صَحيحةٍ تُثبتُ وُقوعَ مُعجزاتٍ غيرِ القرآن الكريم، مُستندًا إلى دلالةِ القرآنِ وفَهمِ المُسلمينَ الأوائل.

ويُؤكِّدُ أنَّ إثباتَ صحّةِ كلِّ روايةٍ يتطلَّبُ الالتزامَ بقواعدِ علمِ الحديث، من حيث السَّند والدَّلالة والمَنطق، مع توافُرِ القَرائنِ المُؤيِّدة. ويُشدِّدُ (السيِّد الصَّدر) على أهمِّيّةِ النَّقدِ العلميِّ، مع الإيمانِ بقُدرةِ النبيِّ ﷺ على إظهارِ المُعجزات، مُؤكِّدًا أنَّ الرِّواياتِ الضَّعيفةَ الكثيرةَ قد تُحقِّقُ تواتُرًا مَعنويًّا يُعزِّزُ صدورَ بعضِها. ويَرى أنَّ انتشارَ الرِّواياتِ في العصورِ الأولى كان نتيجةً للجوِّ الثَّقافيِّ والدِّينيِّ السّائدِ، داعيًا للتَّمييزِ بينَ الصَّحيحِ والمَوضوعِ باستخدامِ مَنهجيّةٍ علميّةٍ دَقيقة[1].

٤ - مثال: الإعجاز في تَحديد قِبلة المَسجد النبويِّ

كما ذكرنا، فإنَّ إثباتَ مُعجزةٍ حسِّيةٍ واحدةٍ للنبيِّ ﷺ يَنقضُ ادِّعاءَ (طرابيشي) بنَفيها، وسنَتناول معجزةً واحدةً حسِّيةً للنبيِّ ﷺ باقيةً وخالدةً إلى يَومنا هذا، وهي تَحديدُ قِبلةِ جامعِ المدينةِ المنوَّرة، في مقالته، يُناقش الشَّيخُ (حسن زادة آملي) تحديدَ قِبلةِ المسجدِ النبويِّ، مُشيرًا إلى التحوُّلِ الإلهيِّ من استقبالِ بيتِ المَقدس إلى الكعبة، مما رسَّخَ الكعبةَ كمَركزٍ رُوحيٍّ للمُسلمين. يُبرِزُ النصُّ دقّةَ النبيِّ ﷺ في تحديدِ القبلةِ دونَ استخدامِ أدواتٍ علميّة، وهذا يُظهر وحيًا إلهيًّا يَتجاوز الوسائلَ البشريّةَ. يُؤكِّدُ الشَّيخُ أنَّ هذا التَّحديدَ طابقَ لاحقًا الحساباتِ العلميّةَ الدَّقيقةَ التي أجراها علماءُ مثل (البيروني) باستخدامِ الفَلك والجغرافيا. يَستعرض النصُّ أيضًا جدلَ العلماءِ حولَ القبلة، مثل رأي (شاذان بن جبريل) الذي رفضَه (السمهودي) و(ابن بطوطة)، مُؤكِّدًا أنَّ القبلةَ مقطوعٌ بها بوَحي إلهيٍّ دون اجتهاد. النصُّ يدمجُ البُعدَ العلميَّ والرُّوحانيَّ، مُشدِّدًا على أنَّ الإيمانَ بوَحي الله يُعزِّزُ فهمَ هذه المُعجزةِ، حيث أظهرَت توجيهاتُ النبيِّ طابعًا إلهيًّا فريدًا ودِقّةً مُطلَقة[2].

---

١ - راجع: محمد صادق الصدر: رسائل ومقالات، ص.ص. ١٧٢-١٧٥. وراجع أيضًا: هاشم معروف الحسني: الموضوعات في الآثار والأخبار.

٢ - راجع: «بناء مسجد المدينة وتعيين القبلة فيه بأمر من رسول الله ﷺ»، مجلة آفاق الحضارة الاسلامية، العدد١.

٥ - علاقة المسلمين الأعاجمِ بظاهرة تضخُّمِ المُعجزات عند (طرابيشي)

في الفصل الأخير من كتابه، يُحاولُ (طرابيشي) تفسيرَ مَنطق المُعجزة في الإسلام، حيثُ يَرى أنَّه في المَرحلة الأولى من الدَّعوة الإسلاميّة كان القرآنُ هو المُعجزة الرَّئيسية، إذ أُنزِلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ لقومٍ يَفهمونَ العربيّةَ. ومع اتِّساعِ نطاق الإسلام بدءًا من النِّصف الثّاني للقرن الثّاني الهجريِّ، ودُخولِ كثيرٍ من الأعاجم في الدِّين، لم تَعُدْ مُعجزةُ القرآن وحدَها كافيةً لإقناع هؤلاء الذينَ لا يَفهمونَ العربيّةَ. لذلك، تمَّ إضافةُ طابعِ المُعجزاتِ الحسِّية وإلحاقها بالنبيِّ محمد ﷺ، فأدَّى ذلكَ إلى ظهور صورة النبيِّ كصاحبِ مُعجزاتٍ لا تتقيَّدُ بشرطِ اللُّغة. هذه الصُّورةُ هي التي سادَت في مرحلة «الفتوحات الإسلامية»، حيثُ تمَّ تعزيزُ مكانة المُعجزاتِ النَّبويّة وتَقديسُها، وارتفعَ احترامُ الأحاديث النَّبوية إلى درجة أنَّ بعضَ الأصوليِّينَ أصبَحوا يُجيزونَ نسخَ القرآن بالسُّنّة. وعلى الرغم من أنَّ صُحُفَ الحديث الأولى كانَت تَحتوي على عشرات قليلة من الأحاديث، إلاّ أنَّه مع مرور الوَقت، وتَحديدًا في النِّصف الثاني من القرن الثاني الهجريِّ، تجاوَزَ عددُ الأحاديثِ الأربعينَ ألفَ حديث[1].

٦ - مناقشة ظاهرة الوَضع وأثرُها في "تضخُّم المُعجزات"

يَتناول الكتابُ ظاهرةَ الوضعِ في الرِّوايات الدِّينيّة وأثرَها على فَهم المُعجزاتِ الحسِّية للنبيِّ ﷺ، حيث يَرى (طرابيشي) أنَّ اختلاقَ المُعجزات كان بهدف استمالة الأعاجم غيرِ النّاطقينَ بالعربيّة، مُعتمدًا على هذا الزَّعم لإنكار تلك المُعجزات جملةً. فضلاً عمّا مرَّ أنَّ هذا الطَّرحَ يَتجاهل أنَّ إثباتَ مُعجزةٍ حسِّية واحدة كفيلٌ بنَقضِ دَعواهُ، فإنَّ هناك احتمالاً عقلائيًّا آخرَ هو أنَّ الحكمةَ من إثبات المُعجزات قد تَشمل تَطمينَ قلوبِ غيرِ العَرب، كما استُخدمت الزَّكاةُ لاستمالة المؤلَّفة قلوبُهم. لقد كان القصّاصونَ في مقدِّمة الوَضّاعينَ؛ إذ لجؤوا إلى تَضخيم الرِّواياتِ واختلاق الكرامات والمُعجزات، بغَرض إثارة إعجاب الجماهير، وتَعزيز مكانة شخصيّات دينيّة مُواليةٍ للسُّلطة، ممّا أدَّى إلى تشويهِ النُّصوصِ الأصليّة، كما لعبَت الانتماءاتُ القوميّةُ والعِرقيّةُ

١ - راجع: طرابيشي، المعجزة أو سبات العقل، ص.ص. ١٦٤-١٧٩.

دورًا في تعزيزِ الوَضع، حيث نُسبت الأفضليّةُ لبعض الأقوامِ أو اللُّغات (كما في سياق تنافُسِ الفُرسِ والعَربِ على خلفيّةِ تَنافُسِ الأمينِ والمأمون)، وهذا عكسَ تعصُّبًا بَعيدًا عن جوهر الدِّين.

هذا الوضعَ لم يكنْ مُجرَّدَ تصرُّفاتٍ فرديّة، بل أصبحَ خطابًا جماعيًّا، وظَّفتْه السُّلطاتُ الحاكمةُ لتحقيق مكاسبَ سياسيّة وأيدولوجية، لعلَّه كان يَهدف إلى إضافة هالةٍ من القَداسة تُنافِسُ قداسةَ أئمّةِ أهلِ البَيت، فاختلطَ الموضوعُ بالحَقيقيِّ.

أمّا (طرابيشي)، فإشكاليّتُه تمتدُّ إلى تَحميله المسؤوليّةَ للمَنظومة الرِّوائيّة بأكملها، رافضًا التَّفريقَ بين الصَّحيح والمَوضوع، ممّا يُؤدِّي إلى تَعميمٍ مُفرِطٍ يُفقِدُ التَّقييمَ النَّقدي توازنَه. اجتهادُه في تفسير النصِّ القرآنيِّ كذلك يَفتقر إلى دليلٍ قطعيٍّ يَدعم تأويلاته، إذ أغفلَ قاعدةَ ردِّ المُتشابه إلى المُحكَم التي تُعد مَنهجًا رئيسيًّا في الفَهم الدِّينيّ. وبالتالي فإنّ نهج (طرابيشي) يَميل إلى التَّجريد المُفرِط دون مُراعاةِ أُسس التَّوثيقِ أو التَّفسير المُتكامل.

ثانيا: المُعجزات والكرامات في المُدوَّنات الحَديثيّة والتُّراثية

منذُ النِّصف الثاني من القرن الرابع الهجريِّ، ظهرَ تحوُّلٌ فكريٌّ عندَ الشِّيعة الإماميّة، أتاحَتْه الحُرِّيةُ الدِّينيةُ التي تمتَّع بها رموزُ الطّائفة إبّانَ حُكم الدَّولة البُويهيّة، ما أتاحَ لهم فرصةَ إظهار أفكارهم التي كانت تحتَ طائلة الرَّقابة من السُّلطات الحاكمة، بصفتها أُسسًا للإثارة والتمرُّد، فأُضيفت تنظيراتٌ أوسعُ وأبعادٌ جديدةٌ مُكمِّلةٌ للمَفاهيم السّابقة، منها ما تجلَّى في ثقافة كتبِ المُعجزات كحاجةٍ كلاميّةٍ واجتماعية.

فالمُعجزةُ في جَوهرها واحدةٌ، لكنَّها تتنوَّعُ في أدوارها؛ فتُخاطبُ غيرَ المُؤمن لإثبات الرِّسالة، وتُعزِّزُ في الوقت ذاته الاطمئنانَ لدى المؤمنينَ. هذا التحوُّلُ سجَّلَ لحظاتٍ فارقةً في العلاقة بين الإنسان والعالَم الغيبيِّ، وأسهمَ في نشر ثقافةٍ رُوحيّة تُعزِّزُ الإيمانَ وتردُّ على المُنكرينَ. وكُتبُ المُعجزات الشِّيعيّةُ ركَّزَت على توثيق هذه الأحداث بدايةً من القرن الرابع الهجريِّ، لخَلق وَعيٍ رُوحانيٍّ مُرتبطٍ بالإيمان الغَيبيِّ داخلَ المُجتمع. كما أنَّ المُصنَّفات السُّنيّةَ أدَّت دورًا مُشابهًا في بعض الأوقات، تظهرُ منه أهمِّيةُ هذا النَّهجِ المشترك في الفكرِ الإسلاميّ.

١ - مُؤلَّفات المُعجزات والكرامات في التُّراث الإسلامي

جاء الحديثُ عن المُعجزات والكرامات عندَ السُّنة إمّا ضمنَ كتبِ الحديثِ والسِّيَرِ والعَقائد أو في مُؤلَّفاتٍ خاصّة. من المُؤلَّفات الخاصة في الإعجاز: «دلائل النبوة» لـ(الفريابي) (٢١٢هـ)، "آيات النبي" لـ(المدائني) (٢٢٥هـ)، «أعلام النبوة» لـ(داود الأصبهاني) (٢٧٠هـ) و(ابن قتيبة) (٢٧٦هـ)، ثم «أعلام النبوة» لـ(ابن أبي حاتم) (٣٢٧هـ) و(أبي بكر بن أبي الدُّنيا) (٢٨١هـ)، و(أبي نعيم الأصبهاني) (٤٣٠هـ)[١].

وفي القرنينِ الثالث والرابعِ الهجريَّين، برزَتْ أربعةُ كتبٍ حديثيّةٍ كُبرى في الفِكرِ الإماميِّ تُسمَّى بالكتبِ الأربعة، وكانت سببًا رئيسيًّا في نشوء نهضةٍ علميّةٍ كبيرة عندَ الإماميّة؛ إذ بَنت تصوُّرَهم عن دور الإمامِ الإلهيِّ، من حيثُ ولايتُه وقيادتُه وفِقهُه وعِصمتُه، وترتَّبَ عليه انتشارُ ثقافة المُعجزِ بعدَ ذلك، «ثم بدأ منذُ النِّصف الثاني من القرن الخامسِ الهجريِّ، وأوائلِ القَرنِ السّادسِ الهجريِّ، تحوُّلٌ نحوَ مفهومٍ آخرَ حولَ الإمامِ، يُشكِّلُ تتمّةً للمَفاهيمِ السّابقة، وليسَ إلغاءً لها بالكلِّية، وقد تكفَّلَ بهذا التحوُّلِ كُتّابُ المُعجزِ وثقافتُه الناشئة عنه عندَ الشِّيعةِ الإمامية[٢].

ويَستعرضُ السيِّدُ (حكمت صاحب البخاتي) تاريخَ كُتبِ المُعجزاتِ بدايةً من القرن الثالث إلى القرن الحادي عشر الهجري. تناولَت المُؤلَّفاتُ الشِّيعيّةُ موضوعَ المُعجزاتِ والكراماتِ بشكلٍ بارز، حيث ظهرَت كتبٌ مُستقلّةٌ وأُخرى تطرَّقَت للمُعجزاتِ ضمنَ أبوابها. ومن أبرز هذه الكُتب: «بصائر الدَّرجات» لـ(محمد بن الحسن بن فروخ الصفّار) (٢٩٠هـ)، و«إثبات الوصيّة» لـ(المسعودي) (٣٤٦هـ)، و«دلائل الإمامة» لـ(الطَّبري الصَّغير) و«نوادر المعجزات» لـ(محمد بن جرير الطَّبري الآملي الكبير) (القرن الرابع الهجري). كذلك فإنَّ كتبًا مثل: «الأمالي» و«عيون أخبار الرضا» و«كمال الدِّين وتمام النِّعمة» لـ(الشيخ الصدوق) (٣٨١هـ) تضمَّنَت أبوابًا عن المُعجزاتِ، بالإضافة إلى «خصائص الأئمة» المنسوبِ لـ(الشَّريف الرَّضي) (٤٠٦هـ)، و«عيون المُعجزات» المنسوب لـ(الشيخ حسين عبد الوهاب) (القرن الخامس الهجري). ومن الأعمال

١ - انظر: أحمد بن محمد فكير: «من مصادر السيرة النبوية .. كتب دلائل النبوة».

٢ - انظر: أحمد بن محمد فكير: «من مصادر السيرة النبوية .. كتب دلائل النبوة».

الأخرى: «الإرشاد والزهر في المعجزات» لـ(الشيخ المفيد) (٤١٣هـ)، و«الاقتصاد فيما يتعلَّق بالاعتقاد» لـ(أبي جعفر الطُّوسي) (٤٦٠هـ)، و«أعلام الورى بأعلام الهدى» لـ(الشيخ الطَّبرسي) (٥٤٨هـ).

ويُشير (بخاتي) إلى أنَّه وردَ ذِكرُ المُعجزاتِ في «تمهيد الأصول» لـ(نصير الدِّين الطُّوسي) (٦٧٢هـ)، و«كشف الغُمّة في معرفة الأئمّة» لـ(علي بن عيسى الإربلي) (٩٦٣هـ). أخيرًا، تُعَدُّ كتبٌ مثل: "بحار الأنوار» لـ(الشَّيخ محمد باقر المجلسي) (١١٠١هـ)، و«مدينة المعاجز» لـ(السيِّد هاشم البَحراني) (١١٠٩هـ)، و«العوالم» لـ(الشَّيخ عبد الله البَحراني) (١١٣٠هـ) من أبرز المَصادرِ المُتخصِّصة.

ويَرى (بخاتي) أنَّ المؤلَّفاتِ العديدةَ عن المُعجزات، خاصّةً في القرن السّادسِ الهجريِّ، انتشرَت فيها ثقافةُ المُعجزِ. ويَستدلُّ بما لاحظَه الشَّيخُ (أبو عبد الله الحسين بن جبير)، من أعلام القرنِ السّادسِ الهجريِّ، عن هيمنةِ وسعةِ انتشارِ هذه الثَّقافة في عصره، حين يتحدَّثُ عن ألفِ مُصنَّفٍ في المناقبِ والمُعجزات قد اطَّلَع عليها، ولعلَّه طالعَ الكثيرَ منها عندَ شروعِهِ في تأليفِ كتابِه «منتخب المَناقب في فضائل أهلِ البَيت»[1]، في نفسِ السِّياقِ الذي يَظهر من اسمِ الكتابِ، وهو محاولةٌ لفَصلِ المُعجزاتِ المُدَّعاةِ والمكذوبةِ، بدوافعَ شعبويّةٍ وسياسيّةٍ، عن المعجزاتِ والكراماتِ والمَناقبِ المُوثَّقةِ والحَقيقيّة.

٢ - إحصاء مُعجزاتِ الأئمّةِ الاثني عشرَ وفقَ المصادر الشِّيعيّة

يتَّفقُ كثيرٌ من المصادر الشِّيعيّةِ على إسناد عددٍ كبيرٍ من المُعجزاتِ للأئمّة الاثني عشرَ، لكن الأعدادَ تختلفُ باختلافِ المؤلِّفينَ والمَراحلِ التّاريخيّة. فقد أوردَ (الخَصيبيُّ) في كتابه «الهداية الكبرى» أكثرَ من مائة مُعجزة، على حين ذكرَ كتابُ «نوادر المُعجزات» حوالي ٢٥٠ مُعجزةً. أمّا (الطَّبريُّ الشِّيعيُّ الصَّغير) في كتابه «دلائل الإمامة»، فقد زادَ العددَ إلى ما يتجاوزُ ٣٠٠ معجزةٍ.

---

١ - انظر: أحمد بن محمد فكير: «من مصادر السيرة النبوية .. كتب دلائل النبوة»، موقع الرابطة المحمدية للعلماء، <https://goo.su/Skapl>

والكتابُ الأبرزُ في هذا السِّياق هو «مدينة المَعاجز» لـ(البَحراني)، الذي جمعَ الرِّواياتِ من القرن الثاني إلى الحادي عشرَ الهجريّ، ووثَّقَ ٢٠٦٣ معجزةً مُوزَّعةً على ثمانية مُجلَّداتٍ. تَوزيعُ هذه المُعجزاتِ جاء كالتالي:

الإمام عليُّ بن أبي طالب: ٥٥٥ معجزة، الإمام الحسن بن علي: ٩٩ معجزة. الإمام الحسين بن علي: ١٩٣ معجزة. الإمام زين العابدين: ١٠٦ معجزات. الإمام محمد الباقر: ١١٦ معجزة.

الإمام جعفر الصادق: ٢٦٣ معجزة. الإمام موسى الكاظم: ١٣٢ معجزة. الإمام علي الرِّضا: ١٦١ معجزة. الإمام محمد الجواد: ٨٤ معجزة. الإمام عليّ الهادي: ٩٣ معجزة. الإمام الحسن العسكري: ١٣٤ معجزة. الإمام محمد المهدي: ١٢٧ معجزة.[1]

تُظهِرُ من حيثُ المَبدأُ هذه الإحصاءاتُ مدى أهمِّيةِ المُعجزاتِ في الفكرِ الشِّيعيِّ، بوَصفِها أحدَ الأدلّة على أحَقِّيةِ الأئمّةِ بالإمامة، حيثُ كانَت جزءًا أساسيًّا من الخطاب الدِّينيِّ والتَّوثيقِ العَقائديِّ على مدار التّاريخِ الإسلاميِّ، كما أنَّ التَّصاعُدَ العَدديَّ يتَّسِقُ معَ التقدُّمِ في سعةِ اطِّلاعِ المُصنِّفينَ، بسبب تطوُّرِ صناعةِ الورق، واعتناءِ السُّلطاتِ بإقامة المكتباتِ، والإنفاقِ على قطّاعِ التَّدوينِ بما تضمَّنَه من أنشطةٍ، مثل النَّسخِ والوِراقةِ وتجارةِ الكُتبِ والتَّصنيف.

ثالثًا: تأمُّلات في كتاب «الخرائج والجرائح» لـ(الراوندي) (رؤية نقديّة وتحليليّة)

كان أبو الحسين سعيدُ بنُ عبدِ الله بنِ الحُسينِ بنِ هبةِ الله بنِ الحسنِ، المَعروف بـ(القطب الرّاوندي) (ت٥٧٣هـ)، من علماءِ القرنِ السّادسِ الهجريِّ، وصفَه الشَّيخُ (الأمينيُّ) بقولِه: «إمامٌ من أئمّةِ المَذهبِ، وعَينٌ من عُيونِ الطّائفةِ، وأوحديٌّ من أساتذةِ الفِقهِ والحَديثِ،

١ - راجع: إيمان صالح سالم العلواني: «معجزات الأئمة ودلالتها على الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية: عرض ونقد»، مجلة جامعة أم القرى للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية، العدد: ٧٧، ص.ص. ٢٨٦-٢٨٧.

وعبقريٌّ من رجالات العلم والأدب، لا يُلحَقُ شَأْوُه في مآثره الجَمّة...»[1]، و«الخرائج والجرائح» أحدُ مصادر التُّراث المُهمّة عندَ علماء المَذهب الإماميِّ؛ حيثُ يُعدُّ مَرجعًا أساسيًّا لكثيرٍ من الرِّواياتِ والأحاديثِ التي استعانَ بها العلماءُ والمُصنِّفونَ عند تناوُلِ مُعجزاتِ النبيِّ والأئمّةِ.

١ - فلسفة المُعجِز عندَ الرّاونديّ

أسهَمَ (قطبُ الدِّين الرّاونديُّ) بشكلٍ كبيرٍ في نشر ثقافة المُعجزِ في الأوساط الشِّيعيّة، سواء من النّاحية الفنيّة وهيكليّة الكتاب وتقسيمه وتَمييزه، أم من الناحية المَوضوعيّة. وقد أصبحَ هذا الفنُّ مُستقلاًّ بذاته، مُتطوِّرًا عن كتب شعراء المَدائح النبويّة السُّنيّة التي تَخلو من إقامة الحججِ والبرَاهين، ومُفصّلاً بشكلٍ أكبرَ لأحداث المُعجزات وتفاصيلها، مقارَنةً بكتُبِ المَناقب العامّة. ويَعود ذلك إلى نُبوغِ (الرّاونديِّ) في عِلم الكلام وغيره من العلوم التي تتطلَّبُ هذا الحضورَ القويَّ، نظرًا لاعتماد ثقافة المُعجزِ على الغَيب واللامَعقول؛ حيثُ «استطاعَ التَّوفيقَ بين المُعجزاتِ والدَّلائلِ والمَسائلِ الكلاميّة الواردة عليها»[2].

٢ - المُستند الرِّوائيُّ عند الرّاونديّ (رؤية تحليلية نقديّة)

أ - اعتمادُه على روايات «بصائر الدَّرجات»

تُعَدُّ مسألةُ الإمامة من أبرز القَضايا في الفكرِ الشِّيعيِّ، حيثُ يتصدَّرُ الحديثُ عنها في التُّراث الشِّيعيِّ عبرَ آلاف الرِّوايات التي تتناولُ جوانبَ مُتعدِّدةً منها، كالعصمة والكرامات، ويُعدُّ كتاب "بصائر الدَّرجات" لـ(محمد بن الحسن الصفّار) من الكُتب المؤثِّرة التي قدَّمَت تصوُّرًا مُختلفًا للأئمّة، واعتمدَ عليها علماءُ مثلُ (الرّاوندي) و(الكليني) لكونها تتناسبُ معَ مَنهجِهم في قَبولِ الأخبارِ بناءً على جمع القَرائنِ والطّمأنينة.

---

١ - عبد الحسين الأميني: الغدير، ج٥، ص٣٧٩.

٢ - حكمت صاحب البخاتي: المصنَّفات في المعجزات وأثرها في ثقافة المعجز عند الشيعة الإماميّة.

يَقول (الرّاونديُّ): «إنَّ هذه أحاديثُ هائلةٌ، مَهولةٌ، فإنَّها من المُشكلاتِ التي تتهافَتُ فيها العقولُ، لكَونها من المُعضِلاتِ، وقد كان الشَّيخُ الصَّدوقُ سعدُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي خلفٍ الأشعريُّ ذكرَها في كتاب البَصائر، وأوردَها الشَّيخُ الثِّقةُ محمَّدُ بنُ الحسنِ الصَّفارُ في كتاب بَصائر الدَّرجات، وكلاهُما لم يكنْ غاليًا ولا قاليًا»[1].

ويَرى الباحثُ اللُّبنانيُّ الدكتور (وجيه قانصو) أنَّ كتابَ «بصائر الدَّرجات» لعبَ دورًا محوريًّا في التَّحوُّلات الفكريّة الشِّيعيّة في القرن الثالث الهجريِّ، حيث رسَّخَ مفهومَ الإمامة كحَقيقة أبديّة تتجاوزُ الزَّمانَ والمكانَ، وأسَّسَ لفكرة أنَّ الإمامةَ رُتبةٌ وجوديّةٌ في نظام الكون، فقَلَّلَ من أهمِّيةِ الغَيبةِ الحسِّيّة للإمام الثاني عشرَ، ودَعا (الصفّار) إلى قَبولِ جميعِ الرِّواياتِ الواردة عن الأئمّة دونَ تَمحيصٍ، حتى لو تعارَضَتْ مع العقلِ أو العُرف، وهو ما يَتناقضُ مع كتاب المَحاسنِ للبرقيِّ، الذي اعتمدَ العقلَ والقرآنَ كمرجعيّات رئيسيّة، إلا أنَّ «بصائر الدَّرجات» أحدثَ نقلةً نوعيّةً في الوَعي الإماميِّ، حيثُ كرَّسَ حقيقةَ أنَّ الإمامةَ أمرٌ غيبيٌّ إلهيٌّ، فاستعادَتِ الرِّواياتُ الصّادرةُ عن الأئمّة التأثيرَ والقُدسيّةَ التي كانَت للنبيِّ الأكرم ﷺ[2]. من جانبه، انتقدَ الأستاذُ (غالب الشابندر) الكتابَ، واعتبرَه "سيِّئَ الصِّيت»، مُشيراً إلى «تساهُلِ» (الصفّار) في نقلِ الرِّواياتِ، وامتلاءِ الكتابِ بأخبار غريبة، وهو ما أكَّدَ عليه (محمد باقر البهبودي) في نقدِه لنَهجِ (الصفّار) في معرفة الحديثِ. إلا أنَّ التَّواتُرَ الحاصلَ في أكثرَ من واقعةٍ يُعطي نوعًا من الاطمئنانِ إلى حدوثِ هذه الكراماتِ بشكلٍ واقعيّ[3].

رابعًا: أثرُ المُعجزاتِ الحسِّيةِ في سلوك الفَرد والمُجتمع

تُعدُّ المُعجزاتُ الحسِّيةُ وسيلةً فعّالةً لزيادة إيمانِ المُؤمنِ وتَقويةِ يَقينه بالله -عزَّ وجلّ-، حيثُ تُمثِّلُ دليلاً قاطعًا على صدق رسالةِ النبيِّ ﷺ، أو ولايةِ الوليِّ؛ فمن خلالِ المُعجزاتِ، يتعمَّقُ إيمانُ المُؤمنِ، ويَزداد يَقينُه بالحقِّ الذي جاءَ به النبيُّ، ويَثبتُ في قلبه صدقُ رسالتِه. كما أشار

١ - الراوندي: الخرائج والجرائح، ج١، ص٩.

٢ - وجيه قانصو: الشيعة الإمامية بين النص والتاريخ: ص.ص. ٣٨٨-٤٠٠.

٣ - غالب الشابندر: «مصحف فاطمة (الجعفري) هل هو موجود حقًا؟

ابنُ أبي العزِّ الحنفيُّ إلى أنَّ المُعجزات تمُيِّزُ بينَ الصّادق والكاذب، فالكاذبُ تَتناقضُ أقوالُه وأفعالُه، على حين تُؤكِّدُ المُعجزاتُ صِدقَ النبيِّ[1] بالنِّسبة للمُؤمن، تمُثِّلُ المُعجزاتُ بركاتٍ تَزيدُ من جمالِ إيمانه، على حين تُعتبرُ للمُكذِّبينَ إنذارًا بعَواقب العَذاب الإلهيِّ؛ إذ تُظهرُ المُعجزاتُ بشكلٍ قاطعٍ صِدقَ النبيِّ، وهذا يُعزِّزُ إيمانَ المُسلِم ويُثبِّتُ يَقينَه بأَنَّه على الحقِّ.

عندَما يَشهد المؤمنُ المُعجزاتِ والآياتِ الواضحةَ، التي جاء بها النبيُّ ﷺ، يَزدادُ يَقينُه ويَثبتُ على الحقِّ في مواجهة الشُّبهات والاعتراضات؛ فالمُعجزاتُ تُعدُّ دليلاً قاطعًا على صِدقِ الرِّسالة، وهذا يُعزِّزُ قدرةَ المؤمنِ على مُواجَهة الشُّكوك، ويُزوِّدُه بالمَنطق والقُدرة على مُحاجّة المُعارضينَ. يقول اللهُ-تعالى- في كتابه الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا**﴾ [النساء: ١٧٤]؛ إذ يُفهَم من البرُهان المُعجزاتُ التي جاءَ بها النبيُّ ﷺ، والتي تُظهرُ صِدقَ دَعوته. والنُّورُ المَقصودُ في الآية هو القرآنُ الكريم، الذي يُمثِّلُ دليلاً عقليًّا ونقليًّا على الحقيقةِ التي جاءَ بها النبيُّ ﷺ، ويَمنح المُؤمنَ القُدرةَ على التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ.

وقد أشار (ابنُ تيميّة) إلى أنَّ إعراضَ الكُفّار عن استماع القرآن، أو رفضَهم للآثار المأثورة عن الأنبياء، لا يَمنعُ من إقامة الحُجّة عليهم، لأنَّ الأدلّةَ مُتوفِّرةٌ على الحقِّ، والمُكذِّبونَ غيرُ قادرينَ على دحضِ هذه الأدلّة. فالمُعجزاتُ تُعدُّ من أبرزِ وسائلِ إثباتِ صدقِ النبيِّ، صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وتُظهرُ لمَنْ يُشكِّكُ في دعوته أنَّ الحقَّ واضحٌ لا لبسَ فيه[2].

الخاتمة

اتَّضح لنا من هذا البَحث:

١. أنَّ الله-تعالى- أيَّدَ رسولَه بمُعجزاتٍ مَعنويّةٍ وحسِّيةٍ معًا، وكذلك أنعمَ على عبادِه الصّالحينَ

١ - راجع: ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، ج١، ص١٤١.

٢ - راجع: ابن تيمية: الرد على المنطقيين، ص٩٩.

بكراماتٍ، حُبًّا لهم، وتَطمينًا لنُفوسِهم، وتَرسيخًا للصِّلةِ بينَ السَّماءِ والأرض.

٢. أنَّ القرآنَ الكريمَ هو أعظَمُ مُعجزةٍ للنبيِّ ﷺ، لكنَّه ليسَ المُعجِزةَ الوحيدةَ له.

٣. أنَّ المُعجزاتِ الحسِّيةَ للنبيِّ ﷺ وكراماتِ الأولياءِ ليسَت بالعددِ الهائلِ، الذي أوصلَه البعضُ إلى الآلافِ من خوارقِ العاداتِ المَبثوثةِ في بطونِ الكُتبِ دونَ تَمحيصٍ وتَدقيق، وتساهَلَ في قَبولِ الرِّواياتِ. وقد قام باحثونَ، بعدَ تدقيقٍ وإحصاءٍ لمُعجزاتِ النبيِّ ﷺ، بتَحديدِ أنَّ الصَّحيحَ منها يُقاربُ المائةَ، وهذا مَعقولٌ ومنطقيٌّ؛ فعُمرُ النبيِّ ﷺ كان ٦٣ عامًا، وما مرَّ به النبيُّ ﷺ وأصحابُه من محَنٍ وابتلاءاتٍ، من أجلِ نشرِ الدَّعوة، يَستدعي التدخُّلَ الإلهيَّ في مواطنِ الشِّدةِ والحاجةِ الشَّديدة، كرامةً ومحبّةً للنبيِّ ﷺ، وتطمينًا لقلبِه وتَثبيتًا للمُؤمنينَ. وهذا لا يَتنافى مع مبدأِ السَّعي والأخذِ بالأسباب؛ فمَزجُ العَقلانيّةِ معَ الإيمانِ بالغَيبِ من دلائلِ النُّبوةِ، ومن سُننِ الأنبياءِ العَمليّة؛ ففي وقتِ الشِّدةِ والمَعارك معَ الأعداءِ يأتي الدَّعمُ الإلهيُّ، وكذلك الحالُ مع أئمّةِ آلِ البَيتِ وأولياءِ الله الصّالحينَ.

٤. أنَّ مجموعَ رواياتِ المُعجزاتِ وتعدُّدَ طُرقِها يَنقلُها من الآحادِ إلى التَّواترِ المَعنويِّ بعدَ فَحصِها وتَنقيحِها والتأكُّدِ من عدمِ وجودِ شُبهةٍ سياسيّةٍ أو مَذهبيّةٍ تسبَّبَت في ضَعفِها، ومع عَرضِها على التَّفسيراتِ العلميّة؛ فإذا عجزَ العِلمُ عن تَفسيرِها، دخلَت في حيِّزِ التَّفسيرِ الغَيبيِّ، كونها أمرًا خارقًا للعادة.

أدَّى فقدانُ العقلِ الحداثيِّ البراهينَ الصَّحيحةَ إلى إنكارِه للمُعجزاتِ الحسِّيةِ والكرامات، بسببِ كونِه عقلاً أداتيًّا اختزاليًّا، يَختزلُ صورةَ النبيِّ الأكرم، صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، في المَقامِ البشريِّ دونَ الجانبِ الرُّوحيِّ، ويَنظر للتُّراثِ الإسلاميِّ بعَينِ المَنظومةِ المَعرفيّةِ المادِّية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

■ جورج طرابيشي: المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، دار الساقي بالاشتراك مع رابطة العقلانيين العرب، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

■ محمد صادق الصدر: رسائل ومقالات: إشراقات فكرية، تح. مؤسسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر، مدين للطباعة والنشر، النجف الأشرف، ط١، ٢٠١٤م.

■ محمد بن علي اليولو الجزولي: "من آراء (جورج طرابيشي) في السيرة النبوية من خلال كتابه (المعجزة أو سبات العقل في الإسلام) - عرض ونقد"، مجلة مركز ابن القطان للدراسات والأبحاث في الحديث، ٣٠ أكتوبر ٢٠٢٣.

■ علي الرباني الكالبايكاني: تلخيص محاضرات في الإلهيات لـ(الشيخ جعفر السبحاني)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، ط١، ١٤٢١هـ.ش.

■ محمد حسين الطَبَّاطِبَائِي: تفسير الميزان، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، قم المقدسة، ط٣، ٢٠٠١م.

■ أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، لا ط، لا ت.

■ محمد بن عمر بحرق الحضرمي: حدائق الأنوار، تح. محمد عزقول، دار المنهاج، جدة، ط١، ١٤١٩ هـ.ق.

■ محمد حسن قدردان قرملكي؛ وغلام حسن محرمي: أجوبة الشبهات الكلامية، تر. السيد

علي حسن مطر الهاشمي. دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع، كربلاء، ط١، ١٤٣٧ هـ.ق.

■ محمد سعيد المكاوي: هل معجزات الأنبياء مستحيلة؟، نشر على منصة أمازون كيندل للكتب الرقمية، ٢٢ أبريل ٢٠٢٠.

■ محمد نبيل غنايم: «المعجزات الحسية للنبي (ص) والرد على منكريها»، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، العدد الرابع، ١٤٠٩ هـ.ق.

■ هاشم معروف الحسني: الموضوعات في الآثار والأخبار: عرض ودراسة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

■ حسن زادة آملي: "بناء مسجد المدينة وتعيين القبلة فيه بأمر من رسول الله (ص)"، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد (١)، لا ت.

■ أحمد بن محمد فكير: "من مصادر السيرة النبوية: كتب دلائل النبوة"، موقع الرابطة المحمدية للعلماء، ١٢ يناير ٢٠٢٤.

■ حكمت صاحب البخاتي: "المصنَّفات في المعجزات وأثرها في ثقافة المعجز عند الشيعة الإماميّة." مجلة نصوص معاصرة، العدد (٦٦).

■ عبد الحسين الأميني: الغدير في الكتاب والسنة والأدب، مؤسسة الأعلمي، بيروت ط٤، ١٩٩٧م.

■ قطب الدين الراوندي: الخرائج والجرائح، تح. مؤسسة الإمام المهدي، المطبعة العلمية، قم، ط١، ١٤٠٩هـ.ق.

■ يحيى محمد: مشكلة الحديث، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

■ وجيه قانصو: الشيعة الإمامية بين النص والتاريخ، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠١٦م.

■ غالب الشابندر: «مصحف فاطمة (الجعفري) هل هو موجود حقًا؟ (٢)»، مجلة إيلاف، ٢٤ يناير ٢٠٠٧.

■ ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، تح. شعيب الأرنؤوط؛ وعبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

■ تقي الدين ابن تيمية: الرد على المنطقيين، دار المعرفة، بيروت، لا ط، لا ت.

■ إيمان صالح سالم العلواني: "معجزات الأئمة ودلالتها على الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية - عرض ونقد"، مجلة جامعة أم القرى للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية، العدد (٧٧)، شوال ١٤٤٠/يونيو ٢٠١٩.